

أدوات الوصول إلى الأطفال

عادل ابوشنب

بحث مقدم باسم اتحاد الكتاب العرب - دمشق

ما هي الأدوات التي يستخدمها كتاب الأطفال في الوصول الى قرائهم الصغار ؟ بل ، ما هي الأدوات التي يستخدمها الفنانون عامة (كانوا يستخدمونها وما يزالون) في انشاء نتاج ما ، رواية او قصة او قصيدة للأطفال (١) ؟

لنحدد المعنى بدقة . أية أدوات نعني ؟

ان القص يؤدي بطرائق متعددة ، قديمة وحديثة ، واللغة - كمثل قد يرد في الحال - ليست أداة ، هاهنا ، بل هي وسيلة من وسائل القص . الأدوات هي التي تقوم بوظائف الاتصال ، وعن طريقها يتم الاحتكاك بين المعطي والمتلقي . هي الجسور التي تعبر بواسطتها الافكار والسيقات والحوادث من شاطي الى شاطيء .

ولكن ثانية ، ما هي هذه الأدوات ؟

١ - الخوارق :

نفترض نحن الكبار ، اننا نقرأ سنديلا ، الآن . فماذا نرى غير هذا الثالث : الأمير والفتاة الفقيرة والساحرة ، أو الفتاة الفقيرة والأمير والساحرة ، أو الساحرة والأمير والفتاة الفقيرة ، ، ويشدنا من هذا الثالث القطب الأكثر إثارة : الساحرة . وهو ، بالضرورة يشد الأطفال أكثر ، لانه القناة التي عن طريقها نسجت الاسطورة او الحكاية او القصة . الساحرة هي الأداة . لا الساحرة كمخلوق ، موجود او غير موجود ، بل الساحرة كفعل مثير خارق وغير مألوف .

تساءل خورخي انريكي أدوم (٢) : « لو كتبت أفريقيًا قصة سنديلا ، كانت تبقى الساحرة بيضاء القلب والبشرة ؟ » (٢)

بعيداً عن المدلول السياسي للجملة . . الساحرة تبقى ساحرة والخوارق تلهب الخيال . الأداة هنا ليست بذات صفة انسانية

لكن للساحرة ملامح انسان في الوقت نفسه ، انسان خارق في أفعاله ، وهذا ما كان يثير الأطفال ، في جميع أنحاء العالم ، والاخوان جاكوب ووليم غريم (٤) لم يفعلوا أكثر من السرد المثير ، باستخدام الأداة التقليدية المثيرة ، التي ورثها كتاب قصص الأطفال من أساطير الشعوب ، واستخدموها بتحوير قليل أو كثير ، فالاحتكاك يتم في وسط إنساني ، أي ان قصص الأطفال ، منذ أن صارت جنساً أدبياً له كتابه ، جعلت الساحرات وسحرهن من أدوات الصنعة ، وليس في صلب عملية القص ، كما كان يحدث في الأساطير ، ولعل هذا الانتخاب المستحدث هو الذي أوحى بالنقطة المثيرة ، فيما بعد : إسباغ خصائص الساحرات على مخلوقات انسانية . من هذه النقطة نستطيع أن نفسر ولادة شخصية «سوبرمان» - على سبيل المثال - الذي لا تقف قوة في وجهه ، والذي غدا « ساحرة » فترة ما في هذا العصر ، وملهب خيال الأطفال ، في مدى عدة عقود ماضية ، وما زال خارقاً اخذاً ، كما كانت الساحرات بالضبط (٥) .

الساحرات الخارقات من أدوات القص ، كانت ، وما زالت ، في صنعة الكتابة للأطفال ، بل في الصنعة المشابهة ، الرواية الشفهية التي نسميها عادة حكاية ، ويدخل في عداد هذه الأداة شخصيات لاحقة ، مشابهة ، وبأفعالها وخوارقها ، تقوم بالمهام نفسها . واحدة من أدوات الأداء القصصي ومن أقدمها هي إذن ، ولا يمكن الادعاء بأنها لا تستخدم اليوم ، فالمسألة ليست مسألة لفظ محدد ، بل هي مسألة وظيفة . «السوبرمان» بديل حديث يؤدي الوظيفة نفسها ، والكتاب ، باستخدامهم لهذه الشخصية ، لا يلفون الأداة القديمة ، الساحرة ، بل يؤكدونها ، وبالتطور الذي حدث ، وبخاصة في ميدان الطباعة ، تبدل الاستخدام المهني - المهني بكل أبعاد الكلمة - للخوارق . كان للساحرات وصف ما متبدل في كل حكاية ، وكان القاص ، الرواية ، يرسم الملامح ويصور الأفعال ، داخل دائرة واسعة ، تتحكم فيها ظروف مختلفة : السياق القصصي للحكاية ، آسنان المتلقين ، الوقت الذي تلقى فيه الحكايات : (الليل المظلم الذي يسبق النوم يتطلب ملامح غير مفرقة في البشاعة للساحرات ، أو قد يتطلب ساحرات طبيبات ينقذن بعصيهن السحرية الفتيات الطبيبات) وشيئاً فشيئاً صار الخارق رسوماً ، أو صوراً متحركة (٦) وبقيت له خاصيته الغذة : الإثارة .

السحرة القدامى او الجدد . . من ادوات الكاتب في الوصول ؛ والخارق . . هو الذي يجذب لا لانه خارق فحسب ، بل لاننا كأطفال نعترف بمعجزاته التي لا نستطيع نحن أن نؤديها والتي في الوقت نفسه ، نصدقها ونؤمن انها حقيقية ، وموجودة فعلا . ولو أننا توهمنا ، خلال غمضة عين واحدة ، أنها وهم لكننا قد اجتزنا عتبة الطفولة - أولاً - سولكنا الفينا هذه الأداة من قاموس الأدوات التي تستخدم في الاتصال - ثانياً - ولكننا قد وقعنا في مازق الفصل بين ما هو وهم وما هو حقيقة ، في مناخ يجب أن تقدم فيه النماذج والحوادث والأشياء والأمور على أنها حقيقة ، ولو

(٤) من مؤلفي القصص للأطفال .

(٥) من الممكن أن نسمي الساحرات جنيات ، كما هن في بعض الأساطير والحكايات السائدة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط ، أو أن نستبدلهن بهن .

(٦) تحول «سوبرمان» على سبيل المثال ، الى رسوم في قصص سلسلة نشرت وتنتشر مستقلة او في المجلات ، كما تحول الى رسوم متحركة في السينما والتلفزيون . ويعاتل «سوبرمان» في شهرته شخصيات أخرى ، لكل منها ملامحها الخاصة ، أو «تفوقها» الخاص .

(١) نستخدم لفظ رواية بالمعنيين : التقليدي الذي هو القص الشفاهي ، والآخر الذي هو القص بالكتابة والرسم والصورة .

(٢) شاعر وروائي من الاكوادور في مقال له عن تأثير قصص الأطفال المكتوبة في أوروبا على أطفال أمريكا اللاتينية .

(٣) عن جريدة النهار - العدد ١٤٠٢٢ تاريخ ١٩٧٩/١٠/٢ وهذه نقلا عن «رسالة اليونسكو» .

في الماضي لم يكن السحرة وحدهم ، أداة رائجة ، في أيدي الكتاب والفنانين . كان الحيوان أداة رائجة أخرى ، استخدمت بمهارة ، في عملية القص ، سواء بالصورة أو باللغة ، وقبل « كليلة ودمنة » بعشرات القرون ، صورت الحيوانات في المغاور والكهوف ، وأحياناً كانت رموزاً وتمثيلاً لمدلولات وقصص ذات معنى ، بل وكانت تاريخياً لحقبة مجهولة .

في « كليلة ودمنة » (١١) تبدو هذه الأداة صارخة في حضورها وفعاليتها . ابن آوى يروي ، وأبطال القمص جميعاً - إلا قلة - حيوانات تقوم بأفعال إنسانية ، وتتصرف كالشعر . هذه « الأنسنة » المقصودة قد لاتعنيننا من حيث كونها تفادياً لخطر المواجهة ، أو من حيث كونها تجنباً لصراحة غير مستحبة ، لكنها تعنيننا ، بالفضبط ، لأنها حفرت في هذا المجرى الفني اخدوداً عميقاً . أن نجعل الحيوانات بشراً في السلوك وفي الفعل وفي النطق ، وأن نزرع بها في عالم الحياة اليومية للإنسان ، في فترة ما ، فهو تمكين للكتاب والفنانين من أن يستمروا الحيوانات ويوظفوها في أغراض ابداعية ، تخاطب الصغار أيضاً . هذه « الأنسنة » أداة رائعة سيبقى العالم مهووراً وهو يستخدمها - وخاصة في مخاطبة الاطفال - لايهدف ترميزي ، بل بهدف الإدهاش المباشر . وهل ثمة ما يدهش الطفل أكثر من أن يتكلم العصفور ، ويتزوج الحمار ، ويعيش الثور كما يعيش الإنسان ؟

في هذا الميدان تفتنت الوسائل الناقلة للثقافة . فلم تبق « الأنسنة » لصيقة بالعرض الشفهي أو المقروء فقط ، بل اشركت الرسم والتصوير في ذلك ، ونشرت قصصاً مرسومة ، أبطالها حيوانات تتصرف كالشعر . وفي كل من السينما والتلفزيون قدمت للاطفال الارانب والفئران وغيرها ، كأنها أناس يفكرون ويفضبون ويسرون ويتكلمون (١٢) ، ومع معرفة الطفل بأن هذه الحيوانات ليست بشراً وليست حيوانات حقيقية ، بل هي رسوم ، فإن هذا المعرفة لم تفسد عليه متعته في الاعتقاد بأنه يتعامل مع وسط انساني أولاً - ربما بسبب من كون السياق القصصي يسير في هذا الاتجاه - وبأن هذه الحيوانات التي هي ليست حيوانات وليست بشراً ، تتعامل مع بعضها بمنطق انساني ، ثانياً ، بمعنى أن ما حدث أو يحدث للفار الشهير « ممكن الحدوث » لانسان ما ، أما المبالغات التي ترافق العروض عادة ، فمبالغات يعرف الاطفال انها تستهدف الاضحاك والمزيد من المتعة .

والانسنة كأداة تجاوزت الحيوانات ، وأعطت ملامحها للطبيعة . الاشجار تتكلم في القصص ، وليست الفراشات وحدها ، والعشب ، والجبل ، القمر والشمس ، تتصرف كما يتصرف كل من رندا وسامر . وهاهي الافكار الأولى تتحول الى أناس بقمصان منشأة وسراويل ملونة (١٣) وإن لم يقال بعد في هذا الاتجاه لأن الافكار مجردات ، يصعب تبسيطها

(١١) كتاب اختلف المؤرخون فيه ، بعضهم قال ان ابن المقفع ترجمه عن اللغة القبطية (الفارسية القديمة) الى اللغة العربية، وبعضهم قال انه اقتبس جزءاً منه وترجم جزءاً آخر والابحاث الدقيقة اكدت ان للكتاب اصولاً في الهندية وفي اللغة السنسكريتية . وكليلة ودمنة هما اخوان من بنات آوى سمي الكتاب باسميهما المذكورين في باين من ابواب الكتاب .

(١٢) لي في كانون الاول ١٩٧٨ احتفل بمرور خمسين سنة على ولادة اول فيلم بطله « ميكي ماوس » الفار النجم الذي لم يتقدم به العمر قط ، والذي خلقه والت ديزني اول ما خلقه في فيلم من الرسوم المتحركة انتج في هولود وعرف باسم « سفينة ويللي » ويعتبر ميكي ماوس نجم اول فيلم للرسوم المتحركة في العالم . ولصعوبة انتاج هذا النوع من الافلام لم يصدر عن السينما العربية انتاج منظم ومستمر للرسوم المتحركة ، بحيث يقدم معه بطل مسا شعبياً على نحو ما حققه ميكي ماوس . . وهذا نقص يجب تلافيه ، مثلما تلافت دور النشر والصحف والمجلات العربية النقص في القصص المصورة ، فافردت زوايا لها أو نشرت كتباً خاصة بها .

إننا نخاف الساحرات لانهن « موجودات » في اذهاننا . ووجودهن حقيقي عند الطفل ، لان افعالهن خارقة ، خارقة ومن هذا النوع الذي لا يصدق ، ونريد ان نصدق ولو لم يحدث فعلاً . إن الـ « سوبرمان » لم يوجد بعد ، لكنه موجود ، والاطفال يريدون أن يقابلوه ذات يوم وجهاً لوجه ، لانهم يقابلونه صباح مساء في المجلات والافلام ، واذا ما تجرأ خالقه (الكتاب أو الفنان) فأعلن أنه شخصية غير حقيقية ، فهذا يعني إلغاء لخواصه التي هي أداة وصوله الى الطفل ، أي يعني إلغاء لوظيفته ، ويعني في الوقت نفسه ، إلغاء لحرية الطفل في أن يمارس طفولته ، مع أبطاله ، في تصورهم موجودين وحقيقيين .

إن الميزات المتوفرة في هذه الأداة قد انتبه لها ، وطوعت لتؤدي وظيفة الايصال ، وفي كثير من الاحيان ، لتقوم بمهمة شبيهة بالمهمة التي يقوم بها النحل في نقل غبار الطلع . فالسوبرمان الامريكي لاينقل للطفل خوارق الانسان غير العادي فقط ، بل يصور وينقل له انتصار الامريكي نفسه « وهذا هو جوهر الايديولوجية الامريكية : العنف والقوة والتفوق » (٨) ايضاً . والطفل مقتنع بوجود هذا السوبرمان الذي لايقرب (٩) ، فاذا اردنا أن ننتزع من صدره هذه القناعة ، فمن طريق إيجاد البديل الخارق الأكثر اتصالاً بحياة الناس ، وليس عن طريق اقتناعه بأن « سوبرمان » شخصية خيالية وغير موجودة . انه يريد ان يكون حقيقي وان كانت غير حقيقية . وهو ينتظر أن يقابلها فجأة ، وهذا يظهر مدى ما لهذه الأداة من نفوذ وهيمنة على الاطفال ، ويظهر طغيانها على الكتاب انفسهم ، فهي تفرض نفسها ، بخيلاء ، وفي خصائصها من المفريات ما يجعل الكتاب يفكرون في استخدامها دائماً ، وسعداء هم الكتاب الذين يستطيعون أن يتكروا خوارق يجمع الخيال في تصويرها ، وتصوير أبطالها ، سعداء لأن حالهم تبدو كحال الباحثين عن الذهب . . وقد اكتشفوا منجماً جديداً .

هل لنا أن نتصور ماذا كسب خالق شخصية « سوبرمان » من شهرة ومال على سبيل المثال ؟

٢ - الأنسنة (١٠)

(٧) كمثل وقمت مجلة « اسامة » في هذا المازق (المعدادن ٢٥٧ - ٢٥٨ تاريخ ١ و ١٦ تشرين الاول « أكتوبر » ١٩٧٩ - عدد مزدوج -) عندما ردت على الطفلة نائلة يوسف من حمص التي كتبت للمجلة : « اعجبتي رسائل اسامة التي كتبها عن رحلاته الى ايطاليا وصوليا ، لماذا لا يكتب اسامة هذه الرسائل دائماً ؟ نريد ان نتعرف على شخصية اسامة . لماذا لا نشره صورته ؟ » ردت بقولها : (اسامة شخصية من شخصيات المجلة ، وليس شخصاً حقيقياً . وقد كتب الاستاذ عادل ابو شنب عدداً من القصص المصورة عن «امامرات اسامة في الارض المحتلة » وعندما نقول : اسامة يكتب لكم من روما أو من صوليا ، فهذا هتا ان احد المحررين في المجلة قد قام بهذه الجولة وكتبها لكم بتوقيع اسامة » - الصفحة ٦ - واسامة شخصية ابتكرت ، اصلاً ، لتكون بديلاً واقفياً للسوبرمان ، وقد قام ببطلات من نوع الخوارق التي يمكن ان تحدث ، فاصبح بذلك شخصية حقيقية ، يتلفت الطفل ليقابلها في اية لحظة ، ولكن ، هكذا ببساطة الفته للمجلة عندما اعلتت انه غير موجود فعلاً ، وبالاعلام المقترحة للبطل المتشود .

(٨) جريدة « تشرين » الدمشقية - العدد ٩٣٥ - تاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٧٨ - مقال « الاحتفال بالفار الامريكي « ميكي ماوس » في عامه الخمسين » .

(٩) تود جريفه « تشرين » في العدد نفسه ان ايك لجاب يذكر في كتابه - فن الشريط الرسوم - « ان الرئيس الامريكي جون كنيدي كان يتدخل في سير قصص رسوم سوبرمان الوجه اصلاً للاطفال ويفرض في احيان كثيرة النهاية المحتومة التي تصور انتصار السوبرمان الامريكي » .

(١٠) لم نجد كلمة أكثر مناسبة منها .

وتجسيدها ، أو انه لا يمكن تجسيدها الا بحذر ، وبصيص مباشرة ، كأن نجعل الرذائل بشراً ، كما في القصة المنشورة ، في الهامش كمثال .

ماهي هذه الاداة ؟

إذا ما عدنا الى رسائل اخوان الصفاء وجدنا في واحدة منها حواراً بين الحيوانات وبين بني البشر ، حول طبيعة كل نوع ، فالحيوان لم يختر شكله بنفسه ، بل الخالق تعالى هو الذي خلقه بشكله ، وإذا كان له عنق طويلة كالزرافة — على سبيل المثال — فليصل الى ذرى الاشجار ، وهذا امر لا يقدر عليه الانسان ، فالحيوان يفضل بهذا ، والجاحظ يرى الحكمة شيتين ، « شيئاً جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشيئاً جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على انه حكمة ، واختلفا من جهة ان أحدهما دليل لا يستدل ، والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل ، وليس كل دليل مستدلاً ، فشارك كل حيوان ، سوى الانسان ، جميع الجماد في الدلالة ، وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للانسان ان كان دليلاً مستدلاً ، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ، ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسما ذلك بياناً » (١٤) .

افتترضت هذه الاداة ، وتقصد « الأنسنة » جميع المخلوقات ، من انواع الانسان أو الحيوان أو الجماد ، بشراً ، وافترضت انها عاقلة وتفكر ، أي أنها حكمة وتعقل الحكمة ، كما يقول الجاحظ ، لقد ساوت بين الجميع ، وأزالت خصائص يتفرد فيها الحيوان أو الجماد ، أو خصائص يتفرد بها الانسان وخلطت الخصائص ، بعضها بعض ، وجعلت المخلوقات في نظر الاطفال سواء ، والارض في قصة الفضل بن عيسى بن ابان التي لم تجب بالكلام بل أجابت اعتباراً (١٥) ستنطق هي نفسها ، لأن هذه الاداة قد مستها بسحرها الذي لا يقف محال في وجهه . كل شيء مستباح . لا شيء يبقى كما هو . الجماد يتكلم ، يحيى ويبعث كأي انسان ، وحتى القمر

(١٣) للكاتب قصة « الرذائل تنتخب زعيمها » وهذه هي :

(اجتمعت الرذائل في الساحة لتنتخب زعيماً لها . ونادى مناد بصوت قوي :

— من يرشح نفسه للزعامة ؟

فرفع الكذب يده ، وقال :

— أنا ..

وساله النادي :

— لماذا ترشح نفسك ؟

قال الكذب :

— لانني اقلب الحقائق .

واعترض النفاق بصوت عال :

— الكذب لا يصلح للزعامة مثلي . أنا اזור الواقع ، واعطي من اخطبه صفات ليست

فيه . أنا اصالح الجميع للزعامة ..

وتتابعت الرذائل في الكلام ، كانت كل رذيلة تشرح خصائصها بحماسة ، الكسل والتواكل والحسد والكراهية والنهيمة والحقد وغيرها ، وحارت الرذائل من تنتخب ، لكل رذيلة تصلح للزعامة ، غير ان الحرية انتهت عندما وقفت الانانية في الساحة ، وسط الرذائل جميعاً ، وقالت :

— أنا ، والله ، اصالح الجميع للزعامة .

وصفقت الرذائل للانانية عندما رأت الى وجهها البغيض ، وانتخبها بالاجماع ..)

(١٤) من دراسة للاستاذين نعيم حمصي وعبد المين ملوحي لكتاب الحيوان للجاحظ — منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق ١٩٧٩ في سلسلة « المختار من التراث العربي رقم ١١ »

(١٥) وقال الفضل بن عيسى بن ابان في قصصه : « سئل الارض ، فقل : من شسق

انهارك ، وغرس اشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجيب حواراً ، اجابتك اعتباراً » — المصدر السابق —

يتبادل الحوار مع الاطفال . والحيوانات التي تسير على اربع لحكمة خلقها الله فيها ، كما يقول اخوان الصفاء في رسالتهم ، تسير بقائمتين ، وفي قصة « ليلي والذئب » الشهيرة جداً ، يبلغ المكر والخبث في هذا الحيوان انه ينكر ويتحدث بشكل وصوت الجدة . بالانسنة .. توحد العالم امام الاطفال ، وصار إنساناً . لقد امتحت الحدود بين الأنواع .

تلك هي واحدة من خصائص « الأنسنة » بل هي خاصيتها الاكثر اهمية .. ولتقدر اية اداة هذه ، التي حملت الكون الى الاطفال متساوياً بعمق ، لا بسطحية .

ان استخدام هذه الاداة مبرر ، الآن ، وبالنسبة لنا هو ربط بين الحاضر والتراث ، في ميدان ، نحتاج فيه الى ادوات جاذبة ، غير ان الخطأ ينتج ، لا بسبب الاستخدام ، بل بسبب المفهوم الخاطيء للاستخدام ، أي بسبب عدم فهم طبيعة هذه الاداة . الانسنة تجعل العالم متساوياً ، لكنها في الوقت نفسه تفرض قانونها الحاد الحاسم ، فليس كل حيوان بقادر على ان يكون انساناً متكلماً أو متصرفاً بسلوك انساني ، في أي ظرف وفي أي وقت . ان البناء الفني للقصة يستعين بقانون الانسنة وتقتد ، ففي مناخ واقعي ، والسياق القصصي في قصة ما مطابق للواقع ، على نحو فوتوغرافي ، يبدو نابياً أن تتكلم زهرة شقائق النعمان (١٦) ، ثم أن اللهب بالطبائع مسألة في منتهى الدقة ، فالحمار ، كمخلوق ، غبي بطبعه ، وصبور ، وكى نجمه ذكياً ، وأحياناً يمنح نصائح ثمينة (١٧) علينا ان نجعل القضية التي يدلي بنصحه فيها من البداهة بحيث يبدو النصح من تحصيل الحاصل ، والادهاش يحدث عندئذ من المفارقة ، فالتوقع الا يدلي الحمار بالنصيحة الثمينة ، وإذ يدلي بها ، فانه يدلنا لا على بداهة القضية فقط ، بل على ان الكاتب قد اراد أن يبدل من طبيعة الحمار ، حسب مقتضى الحال في هذه القصة . فهو ، في الحق ، لا يبدل من طبيعته ، لكنه يستخدمه في تقيضه ، حتى ينبه إلى البداهة .

ويبقى الحديث في هذه الاداة مبتسراً ، مقصراً ، لأن الامثلة الحديثة بخاصة ، كثيرة الى حد ان التساؤل عن السبب في استخدام هذه الاداة

(١٦) عد الى بحث « دراسة تطبيقية لنصوص ادبية مكرسة للاطفال » لعادل ابو شنب

— مجلة « الموقف الادبي » العدد ٩٥ — آذار ١٩٧٩ (عدد خاص بادب الاطفال)

(١٧) وهذه هي القصة من مجموعة «اصدقاء النهر» لعادل ابو شنب — نشر دار المسيرة في بيروت ١٩٧٩ :

(وقف المصفور الصغير يروي على اصدفاته قصته ، فقال :

— أنا مصفور صغير . ترحلت اسرتي عن عشنا ، هربا من الاعداء .. بكيت قليلاً ، ثم استأجرت حمارة ، ورحلت ابحت عن الاسرة في كل مكان من ارض الوطن .

فيل لي انها هاجرت الى الشمال

وقيل انها رحلت الى الجنوب

وقيل انها هربت الى الشرق ..

وأخيراً قالوا انها استقلت مركباً شرعياً وسافرت الى بقعة نائية في الغرب .

سألت صديقي :

— لو كنت مكاني ، ماذا تفعل ؟

قال :

— أنا حمار . من يصفي الى نصيحة حمار في هذا الزمان البائس ؟

قلت :

— أنا

قال :

— عد الى عشك الذي ولدت فيه . حصنه جيداً وروض نفسك على ان تحيا فيه ، قاوم

الاعداء قدر ما تستطيع ، واذا اغتالوك فحسبك فخاراً انك مت في عشك ...)

بكرة مفزعة ، وأحيانا في الاقتصار عليها ، أصبح ملحا ، لقد استسهل استعمال هذه الآداة ، حتى غدا التجريب في الكتابة للأطفال لا يتم الا بها ، مما ترك في الساحة العربية رصيذا هائلا من النتاج المكرس للأطفال يجب التمهيد فيه .

٢ - المؤثرات

لا الرجل الآلي ولا رجل الفضاء ولا الحرب بين الكواكب (١٨) وحدها جذبت الأطفال في القصص التي تسيّر في هذا الاتجاه ، بل الجو الذي يحيط بهؤلاء جميعا . . هو الذي يعمق اهتمام الأطفال بهذا القص المستحدث ، المبني أصلا على المعلومات المتوفرة في ألوان الحضارة المعاصرة .

ولكن ما هو هذا الجو ؟

يبدو الصراع في قصة ما عن حرب دائرة بين كواكب ما وسفن فضاء قادمة من الأرض . . صراعا شبيها بقتال مشير بين الديكة في قرية ، من تقاليدنا هذا الاقتتال . انه مشير بقدر ما هو حار ، لكن إثارته من النوع المألوف ، الذي يصبح عاديا بالتكرار ، ولو أن منظما حدقا لهذا اللون من الاقتتال ادخل الايقاع الموزون - بشكل ما - عليه . . لتجددت إثارته . وفي هذه الحالة نستطيع الادعاء بأن الاثارة قد جاءت بسبب من الجو الذي أحدثه الايقاع الموزون . وهذا الجو . . ما كان ليحدث لولا المؤثر الطارئ الذي قد يكون طبلا أو مزمارا أو حتى تصفيقا بالأيدي .

المؤثر . . أداة كالخارق وكالاستنسة ، أداة في الجذب ، وأداة في الوصول للأطفال ، وهو ليس حديثا ، فالرواية في الماضي ، كثيرا ما كان يستعين به في نقل رواه الى جوه . فان كانوا أطفالا يصفون الى حكاية بظلمها الفول (١٩) ، جله الراوية بصوت الغول ، وأطلقه من فمه بالشكل الذي يحلو له ، فخلق في التو المؤثر المناسب ، وإن كانوا كبارا يصفون الى سيرة الزير سالم مثلا انشد الراوية شعرا بتنظيم يتناسب ومقتضى الحال ، فوضع سامعيه في الجو الذي يريده ، او انه اطلق صيحات شبيهة بصوت حصان الزير ليشد جمهوره إليه ، والأهميات يفتن غناء خاصا مع الحكايات حتى يضعن أطفالهن في « جو » النوم ، وكما يكون التأثير فعلا تضاف الموسيقى في العروض المسرحية والسينمائية ، وما الموسيقى الا الآداة التي تهيب المتفرج ، صغيرا كان أو كبيرا ، للنفاذ الى « داخل » العمل الفني ، أي انها العامل المساعد في خلق الجو الملائم .

ويدخل في هذه الآداة الفديكور المسرحي أو التلفزيوني الذي يقوم بالوظيفة نفسها ، فهو عامل مساعد في خلق الجو الملائم ، وهو من هذه المؤثرات التي كثيرا ما تكون ، بنفسها ، الآداة الجاذبة في العمل الفني ، كما يدخل فيها تكوين الدمى في مسرح العرائس وصناعتها والابتكارات فيها ، لأن صناعة دمى بشكل ما قد يكون له فعل خارق في الجذب ، وخاصة بالنسبة للأطفال . فهذا المؤثر الذي له امتداداته الساحقة في القدم ، كتب له أن يستيقظ ويحيا مجددا ، ويكون أداة للوصول للأطفال ، ولم يعد مقتصر على الصوت الذي ينقل الجو والمناخ ، بل تعداه الى نواح أخرى .

في قصص الخيال العلمي . . لا يبهنا التركيب غير المألوف للأحداث فقط ، بل تبهنا « الخدمات » التي توضع لتنتقلنا الى عالم غير مألوف ،

(١٨) كثرت الافلام والمجلات التي تدور في هذا الفلك مؤخرا ، وقد تكون قليلة في الساحة العربية لكنها لن تكون كذلك في المستقبل ، فهذا الفسوف من الافلام والمجلات سيملأ السوق العربية مثلما فعلت الافلام ومجلات طرزان وسوبرمان وميكي ماوس .

(١٩) الفول شفعية خرافية ، استخدمها العرب كثيرا في ميثولوجياهم .

عالم خيالي ، لا يفترض انه موجود أو معروف سلفا ، الثياب غير العادية لرجال الفضاء ، الأشكال التي يظهر بها الرجال الآليون ، طريقة طيران سفينة الفضاء أو الطبق الطائر ، وقبل ذلك كله « جو الحياة » في الكواكب الأخرى وفي علاقتها ببعضها البعض عن طريق تكنولوجيا متقدمة تتلأل فيها أضواء وتنطفئ أضواء ، وتفتح ابواب ما كان ليخطر بالبال أنها ابواب ، وتعيش وتصور مخلوقات ليس لصورها أشباه في الحياة الواقعية على الأرض . هذا المؤثر المثير . . أداة قديمة - جديدة ، في أيدي الكتاب والفنانين ، أنضجت نار الحضارة الجديدة ، والتوافد التي فتحها الخيال على العلم ، أو العلم على الخيال ، وهامم الفنانين يستخدمونها بنجاح يلهب المشاعر (٢٠)

ولعل من خصائص هذه الآداة كونها عجيبة ضخمة في عقل الفنان ويده ، بل لعل من خصائصها أنها تبتلع الخيال مهما اشتط وتعاظم ، أنها تقول للفنان : ابحر في ظلمات الخيال وهات ما تصل اليه يدك ، فانا قادرة على الذهاب معك في رحلتك الى أبعد مما تظن . لا حدود لسي . . . استخدمني كما تريد ، وسأكون مارك الذي يلبك أبدا . .

* * *

إن هذا البحث الرائد في أدوات الوصول الى الأطفال ، قد أريد له أن يكون مختصرا ، لانه استهلال ، يستهدف ، التنبيه الى أقتية جذب الأطفال منذ القديم ، وهي أقتية - أو أدوات ، كما سميناها - فرضت نفسها أثناء تطور عمليات الخلق الفني ، ولانه استهلال ، فان البحث فيه سيكون مثيرا وذا دلالات ، عندما يؤتى بشواهد من النتاج القديم والحديث لتعزيه ، وعندئذ لن يكون استهلالا ، بل سيكون اطلالة بانورامية على جنس فني وأدبي ، صار معترفا به في العالم ، بل صار واحدا من الأجناس التي لها أكبر عدد من المتلقين . وهل ثمة أكثر من الأطفال جمهورا يتلقى بشغف في العالم ؟

* * *

(٢٠) من المناسب أن نذكر هنا ان الرسم بالألوان يدخل في دائرة هذه الآداة ، اللون ، كالمصوت ، يخلق الجو والمناخ اللازمين لأحداث التأثيرات المناسبة ، وفي القصص المسلسلة التي تنشرها مجلات الأطفال الكثيرة في العالم (نان نان على سبيل المثال) يتبارى الفنانون في التأثير باللون . ولقد انتبه العرب الى ذلك في يفتنهم الأخرى في ميدان الكتابة للأطفال ، فاصدوا مجلات ملونة تطبع بطرق طباعية حديثة ، كاسامة في سورية ومجلتي في العراق وسمير في مصر وسامر في بيروت وسعد في الكويت .